

وقفة بالعقيق !

للأستاذ علي الطنطاوي

وقفة بالعقيق تطرح تفلأ من دموع بوقفة في العقيق
مائل بين أربع مائلات يتزع الشوق من فؤاد علق
« البحتري »

... أصابتنا في المدينة عين من المطر ، فخبستنا في الدار
أياماً ، وجاءت بمد تحمل من الأرض ، وشحج من السماء ،
فروت الأرض ، وأسالت الأودية ، فاستبشر الناس بنا (١) إذ
كان قدومنا خيراً ، وزيارتنا غيثاً ، ومقامنا ربيعاً ؛ وليس أجمل
في أرض العرب من الربيع ، ولا أجدى من النيث ؛ ثم
انقضت الفيوم بمد أيام ، إلا جهاماً من السحاب هفماً رقيقاً ،
وأفتق (٢) قرن الشمس نفلع على الدنيا حُلَّةً نذجت من
خيوط النور وحلى اليوم وطاب ، نفرجتنا من دورنا
نستمتع بجماله وطيبه ، وغلاً سدورنا بهذا النسيم الناعش ،
وعيوننا بهذه المناظر الخلابية ، وآفاننا بهذا الأرج يتضوع من
هذه التربة المطرة « بمطر السماء » . . . وسرنا في « شارع
المنبرية » نريد الحرم ، فلم نكد نعدى « الناحية » حتى قيل :
قد سال العقيق .. فإذا الوجوه تطفح بالبشر ، وتفيض بالسرور ،
وإذا على كل لسان : قد سال العقيق وإذا الناس
يستعدون للخروج !

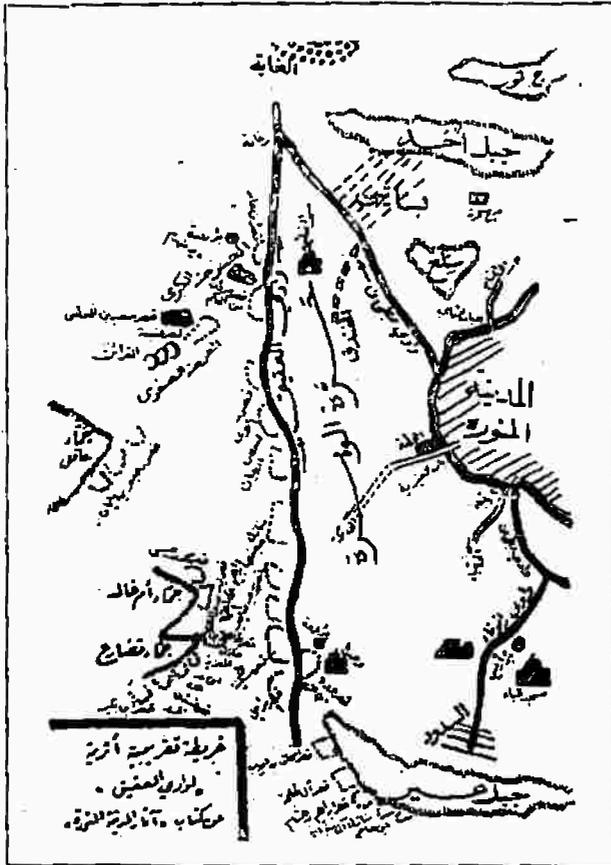
وهل يملك الناس نفوسهم ، فيعمدون لا يخرجون إلى
العقيق ، وقد سال العقيق ؟ وهل يدكر عرق العقيق ثم لا يذكر
الحب والشعر ، والفن والجمال ، والحياة الناعمة والعيش
الرغيد ؟ أولم يكن وادي العقيق رمز الهوى والشباب ، ومعنى
النسي والانتفاء ، ومثابة الفن والأدب ، وجمع المشاق ، وندى
الشعراء ؟ ألم يكن العقيق قلب المدينة حين كانت المدينة قلب
العالم ؟ ألم يولد على جنبات العقيق ديوان كامل من أربع دواوين
الأدب العربي وأحلاها ؟ ألم تمش على أطراف العقيق المشرات
من القصور الفخمة ، والرياض النضرة ، والذاني التي فاض منها
الشعر والسحر والمطر على الدنيا كلها ؟ أليس لاسم العقيق

(١) مطر الوغد السورى

(٢) أفتق قرن الشمس ، أى بدأ من فنق في السحاب

حلاوة ؟ أما عليه طلاوة ؟ ألا يحلو في الأذن تكراره ، وبلد
اللسان تراده ؟ . . .

ألم يقرأ أحاديث العقيق ، وبرو أشعار العقيق ، من لم ير
قط العقيق ، فهوى العقيق ، ويحن إلى العقيق ؟ فكيف يسيل
العقيق ثم لا يخرج أهل المدينة إلى العقيق ؟ . . .
أولم يسمع عبد العزيز بن الماجشون أن قد سال العقيق ،
وهو خارج من صلاة الصبح ، فلا يترث ولا يمر بداره ، وبعضى
إليه من ساعته ، فيلهو فيه بمض اللو ، ويسمع فيه الغناء ،
وهو هو في مكانته ووقاره ؟ فكيف بمائة الناس وشبابهم ؟



خرجنا مع من خرج ، فلم نجاوز السور وترك عن أيامنا
المحطة العظيمة ، الخالية الخاوية ، السكاية الباكية ، التي أضاعها
أهلها ، وأهلها حتى نسوها . . . حتى بدت لنا الحرة السوداء
الواسمة (١) فسلكننا طريقاً فيها جديدة ، على يسار الطريق
القديمة التي تهبط الحرة على سلم منقورة في الصخر ، وهذه النقرة
هى ثنية الوداع ، التي طلع منها رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
فاستقبله الولائد بالدخوف ينشدن :

(١) ومن حرة الوبرة إحدى حرق المدينة ، أو لابنبا

وأرى قصر عمرو العظيم ، قد سطعت في شرفاته الأنوار ،
 وحف به الشمراء والمغنون ينتظرون زيله الجليل ، الشاعر الغزل
 الفقيه المحدث عمرو بن أذينة ، يأخذوا من شعره ، ويحفظوا
 من حديثه ، فإذا طال بهم الانتظار ، وتصرم الليل ، ولم يفوزوا
 بطائل ، ذهبوا إلى دورهم وقد أيسوا من لقائه تلك الليلة ، وأزمعوا
 أن يباكره من الغد . وسكن العقيق وخلا إلا من عاشق أرق
 « بناجى طيف من مهوى ، وبينى عنده السوى » وخشع الليل ،
 وأنصت السكون ، فقام عمرو على شرفة القصر ، فراقه سكون
 الليل ، وفتنه منظر العقيق ، فهاج في نفسه الشوق ، فاندفع ينشد :
 إن التي زعمت فؤادك ملها خلقت هواك كما خلقت هوى لها
 فبك التي زعمت بها وكلا كما يبدى لصاحبه العصابة كلها
 وببيت بين جوامحى حب لها لو كان تحت فراشها لأقلها
 ولعمرها لو كان حبك فوقها يوماً وقد ضحيت اذن لأظلمها
 يضاء باكرها النعيم فصاعها بلباقسة فأدفعها وأجلها
 لما عرضت مسلماً لي حاجة أرجو معونتها وأخشى ذلها
 منمت تحيتها فقلت لصاحبي ما كان أكثرها لنا وأذلها
 فدنا فقال : لعلها معدورة من أجل رقيتها ، فقلت : لعلها
 فلما كان الصباح ، غدا أبو السائب الخزومي على عبد الله ،
 فقال له : أسمعت أبيات عمرو أمس ؟ قال : وآية أبيات ؟ قال :
 وهل يخفى القمر ؟ قوله :

إن التي زعمت فؤادك ملها

فأنشده إياها ، فلما بلغ إلى قوله : لعلها ، قال أبو السائب :
 أحسن والله ، هذا والله الدائم المهدد ، الصادق العصابة ،
 لا الذي يقول :
 إن كان أهلك بمنموتك رغبة عني فأهلي بي أضن وأرغب
 وإني لأرجو أن يغفر الله لصاحبك (يعني عمرو) حسن
 ظنه بها ، وطلبه العذر لها ؛ ثم يعرض عليه عبد الله طعاماً فيقول :
 لا والله ما كنت لأكل بهذه الأبيات طعاماً إلى الليل !
 وينتظر عبد الله حتى إذا حان المساء ، وأتر الجوع في أبي
 السائب ذهب إليه فقال له : « جئت أشدك وأحدك » فيقول :
 « مات ما عندك » ، فيحدثه وينشده ، حتى ينشده بيني والرجى :
 بآنا بأنعم ليللة حتى بدا صبح تلوح كالأعصر الأشقر
 فتلازما عند الفراق عصابة أخذ الفريم بفضل ثوب المسر

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
 وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
 والتي منها أشرق « البدر » على القلوب والمقول ، فأناها وهي
 منه في نور إلى يوم القيامة !
 وسرنا في هذه الطريق نحواً من كيلين اثنين فأنهينا إلى بئر
 عمرو ، التي حفرها الامام الزاهد العلم عمرو بن الزبير ، فكانت
 في قصره العظيم الذي اندثر ، ولم يبق له من أثر ، وهي أعذب
 بئر في المدينة وأطيبها ، وكان ماؤها يحمل إلى الرشيد في قوارير
 وهو مقبم في الرقة ؛ وإلى جانب البئر قهوة جديدة ، قامت
 على جذوع النخل ، جلسنا فيها على كراسي مستطيلة ، تتخذ في
 مقاهي الحجاز مجلساً وسرياً ، تطل على الوادي العظيم
 والوادي رغيب ، بين عدوئيه أكثر من مائة متر ، وعلى
 المدوة الأخرى جبال حمراء جميلة النظر ، وقد غفى الوادي وامتلأ ،
 والسيل دقاع يلتطم آذنه ، وتصطخب أمواجه ، يرمى بالزبد ،
 ويطوح بالفقايع ، ويمجرى متكسراً وله خرخررة ، وله دردة ،
 وعلى جانب الماء حصباء واسعة ، قد جلس فيها المدنيون حلقاً ،
 يحفون : « سماورات » الشاي البراقة العالية ، ويشنون ويظربون ،
 ما سمحت لهم « الحكومة » أن يفتنوا ويظربوا ...

جلس إخواتنا يتجادون أطراف الحديث ، فيذكرون بلادهم
 وأوطانهم ، ويحنون إلى النوطة النناء ، والعين الخضراء ،
 والزبداني وبلودان ، وتلك الجنان ، وجلست أحدثق في ماء
 العقيق ، وأحن إلى أيامه الفرح ، وماضيه الفخم ، وأفكر في حاضره
 الممض ، وواديه القاحل ، فأطيل التحديق ، وأمضى في التفكير
 حتى أذهل عن نفسي ، وأنسى مكاني ، فأرى صفحة الماء تضطرب
 وتهتز ، وتختلط فيها الأنوار ، وتمتزج فيها الأضواء ، كأنما هي
 سبيكة ذهب ، أو قطعة ياقوت ، ألقى عليها نور وهاج ، ثم أراها
 قد استقرت وسكنت ، فإذا العقيق غير العقيق ، وإذا هو غارق
 في المطر والنور ، وإذا من حوله المشرات من القصور ، تضيئ
 كأنها التريا في السماء ، فتتمكس أنوارها في الماء ، فتتوارى
 النجوم استحياء ، وتنص العين خجلاً ، ثم تستر ببرقع الغمام وتبكي ،
 فيضحك العقيق لكاء السماء ، وتضحك الأرض لمضحك العقيق ؛

بحرام الله على ما أرجو من عافية . قالوا : نسقيك الرقده . قال :
ما أحب أن أسلب عضو آمن أعضائي وأنا لأجد ألم ذلك فأحسبه
قالوا : فما تصنع إذن ؟ فأخذ في التهليل والتكبير ، وقال :
شأنكم بها !

ودخل عليه قوم أنكروهم ، فقال : ما هؤلاء ؟ قالوا : يمكوثك .
فان الألم ربما عزب معه الصبر ، وأنت شيخ كبير !

قال : أرجو أن أضيفكم ذلك من نفسي . فقطعت كعبه
بالسكين ، حتى إذا بلغ العظم وضع عليه المنشار فقطعت ،
وهو يهلل ويكبر ثم أغلى له الزيت في مغارف الحديد ،
فغمس به . ففضى عليه ثم أفاق وهو يمسح الدرق عن وجهه ، فلما
رأى القدم بأيديهم ، دعاها فقلبها في يده ، ثم قال :

أما والذي حملني عليك ، فإنه ليعلم إلى ما مشيت بك إلى
حرام

وأسمهم يتحدثون كيف دخل ابنه محمد — وهو فتي المدينة
جمالاً وكالاً ، وأدباً ونسباً — كيف دخل اصطبل الوليد فرمخته
دابة فقتلته ، وما يعلم عمروة بشيء من ذلك ، وكان عمروة رجلاً
صالحاً قد عاف الدنيا ، وانصرف عنها ، ولم يرد منها إلا زاداً
يقطع عليه الطريق إلى الجنة :

ذكر المشي أن المسجد الحرام جمع مرة بين عبد الملك
ابن مروان وعمروة وأخويه عبد الله ومصعب ، على عهد معاوية
ابن أبي سفيان فقال بعضهم لبعض : هلم فلنسنن
فقال عبد الله : مشيتي أن أملك الحرمين ، وأمال الخلافة
وقال مصعب : منيتي أن أملك المراقين ، وأجمع بين عقيلتي
فريش : سكينه بنت الحسين ، وعائشة بنت طلحة

وقال عبد الملك : منيتي أن أخلف الأرض كلها —
وأخلف معاوية

فقال عمروة : لست في شيء مما أنتم فيه ، منيتي الزهد في
الدنيا ، والفوز بالجنة — بالآخرة ، وأن أكون ممن يروى عنه
هذا العلم

فصرف الدرهم من صرفه — إلى أن بلغ كل واحد منهم
إلى أمه — فكان عبد الملك يقول : من سره أن ينظر إلى رجل
من أهل الجنة ، فلينظر إلى عمروة ؟

على الظنطاري

(البقية في العدد القادم)

فيقول أبو السائب : أعدته علي ، فيمده أبو مصعب ،
فيستفز المخزومي الطرب فيحلف بالطلاق لا ينطق بحرف غيره
حتى يرجع إلى بيته !

ويعمر بهما عبد الله بن حسن بن حسن وهو منصرف من
مال له يريد المدينة فيسلم عليه ويقول : كيف أصبحت أبا السائب ؟
فيقول :

فتلازما عند الفراق صبابة أخذ الفريم بفضل نوب المسر
فيقول ابن حسن : مالك يا أبا السائب ، اني لا أكاد أفهم عنك
فيقول :

فتلازما عند الفراق صبابة أخذ الفريم بفضل نوب المسر
فيقبل عبد الله بن حسن على عبد الله ، فيقول : متى أنكرت
صاحبك ؟ فيقول : منذ الليلة ، فيقول : إن الله ! أي كهل
أصيبت به فريش ! ثم يمضي

ويعمر بهما عمران بن محمد التميمي قاضي المدينة يريد مالاً له
على بطة له ومعه غلام على عنقه غلالة فيها قيد البطة ، فيسلم
ويقول : كيف أنت يا أبا السائب ؟
فيقول :

فتلازما عند الفراق صبابة أخذ الفريم بفضل نوب المسر
فيقول القاضي لعبد الله : متى أنكرت صاحبك ؟ فيقول :
آنفاً ، فيسترجع القاضي ويهم بالضي ، فيمكر عبد الله بصاحبه
ويقول : أفتدعه هكذا أيها القاضي وتمضي ؟ والله ما آمن
أن يتدهور في بعض آبار المقيت ، قال القاضي : صدقت ، يا غلام !
قيد البطة ، فيضع القيد في رجله وهو يشير بيده ويصيح :

فتلازما عند الفراق صبابة أخذ الفريم بفضل نوب المسر !
* * *

ثم يضطرب الماء ويموج ، فتطمس الصورة فلا أرى في
الماء إلا أشباحاً سهمة ، سهرة متداخلة ، ثم تبين وتضح ، فإذا
أنا أرى قصر عمروة ، وقد هي وفرش ، ودارت به الخدم والبيد ،
واجتمع من حوله السراة والأعيان ، وهم يتحدثون تبدو عليهم
أمارات المال والقلق ، فلما الذي ينتظر شيئاً ويبطئ عليه ، وأدنو
منهم فأفهم من حديثهم أن القادم صاحب القصر عمروة بن
الزبير ، أحد الفقهاء السبعة ، وقد كان في دمشق فأصابته الأكلة
في رجله ، فأراده الأطباء على قطعها وإلا سرى الداء فأفسد عليه
جسده ، وقيل له نسقيك المرح حتى لا تجد الماء ! فقال : لا أستعين